

الصناعات الحرفية العمانية

«بين الماضي والحاضر» (٥.١)



د. فتحي عبدالعزيز الحداد

تؤكد المصادر التاريخية والمكتشفات الأثرية أن سكان عُمان مارسوا الصناعة بشتى أنواعها وبرعوا في توفير الصناعة الحرفية لتنمية المجتمعات وسد الجوانب الاقتصادية التقليدية في الماضي تفاعل الإنسان العماني مع بيئته ليوفر ما احتاجته ضروريات الحياة اليومية، وكان عليه أن يواجه عالم الصناعة بمفرده في حدود معارفه وإمكانات عصره



بالشرقية. ويدل ما تم العثور عليه بهذه المنطقة من قطع خزفية وأدوات حجرية ونحاسية على أنها ترجع إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد. ويمكن أن نميز من بين هذه المباني القديمة مواقع لصهر المعادن ومنشآت أقيمت فوق أطلال المقابر ورسف حجرية وتحصينات ومباني مستديرة من الحجر وكذلك قنوات للري. وفيما عدا بعض المناطق الأثرية الواقعة بين إزكي وإبراء بوادي عنندام، ووادي سمد، فإن معظم هذه الآثار قد تهدم ولم يبق منها سوى بعض الأكوام من الحجارة أو جزء من جدار أو ممر مائي أو سد. فإن الظروف كانت قد هيأت الفرصة لري الحقول ولتوفير الغذاء للماشية.

وقد دل على هذا الاستقرار أيضاً الاكتشافات الهامة الأخرى ومنها ذلك الاكتشاف الذي تم في عام ١٩٧٦ لبعض المنشآت التي يرجع تاريخها إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد بمنطقة بات الواقعة شرق عبرى والتي تتضمن مدافنها ما لا يقل عن ثلاثمائة مقبرة ظل بعضها على حالته الأصلية. أما المدافن في حد ذاتها فإنها تشتمل على ما يقرب من مائة مقبرة تم بناؤها من الأحجار، وقد بنيت المقابر المستديرة المصممة على شكل خلية النحل من أحجار لم تستخدم في تثبيتها المونة، ويضم القبر الواحد المحددة لشخصي أنواع الحرف والصناعات القديمة، وكانت الإمكانات المادية التي توافرت في البيئة هي أساس هذه الحرف والصناعات التقليدية، فتفاعل الإنسان العماني مع بيئته ليوفر ما احتاجته ضروريات مقتضيات الحياة اليومية، وكان عليه أن يواجه عالم الصناعة بمفرده في حدود معارفه وإمكانات عصره فاستطاع أبناء مجان منذ عصور موهلة في القدم من صنع الأواني الحجرية، والأسلحة الصوانية، ثم الأواني الفخارية، والأسلحة المعدنية، والحلي، ثم تمكن من صنع أدوات الزراعة، واستطاع أيضاً أن يصنع المراكب وأدوات الصيد التي مكنته من ركوب البحر والاتصال بحضارات العالم القديم المختلفة. وفي ذلك دلالة كبيرة على قدم الصناعات الحرفية في عُمان. ■

الخبير بالهيئة العامة للصناعات الحرفية



اللغات السامية يأتي مرتبطاً بالتعليم والمهارة. وعادة ما ترتبط الصناعات الحرفية بوجود مجتمع مستقر، ووجود إمكانيات تساعد على قيامها، وتوفر المواد الخام الأولية، والأيدي الماهرة. قد اعتمد الحرفيون على ما وفرته البيئة العمانية لتوفير ما يحتاجه الإنسان من أدوات والآلات وملابس. وقد ذكر مؤلف كتاب الطواف أن ميناء عُمان كان يصدر عدداً من المنتجات المحلية. وتؤكد لنا كل من المصادر التاريخية والمكتشفات الأثرية أن سكان عُمان قد مارسوا الصناعة بشتى أنواعها كصناعة السيوف والدروع والرمح ومارسوا صناعة المنسوجات، والأواني الحجرية والفخارية. وبرع العماني القديم في توفير الصناعة الحرفية التي دعت إليها الحاجة لتنمية المجتمعات ولتسد إحدى الجوانب الاقتصادية التقليدية في الماضي وقد وجدت نماذج منها منتشرة في مواقع حضارية كثيرة في عُمان. وقد تميزت الصناعات الحرفية العمانية بالدقة في المنتج والابتكار والكفاءة العملية والمستوى الجمالي وانتشرت في جميع المستوطنات والمناطق الحضرية. وقد كان هذا الإنتاج الحضاري من قديم الزمن حيث إن فكرة استقرار الإنسان على أرض عُمان منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد قد أصبحت من الأمور المسلم بها اليوم، وذلك من خلال ما أثبتته الكشوف الأثرية الحديثة. ففي عام ١٩٧٣م حددت بعثة للآثار من جامعة هارفارد عشرين موقعا أثريا تمتد على مساحة ٥٠٠٠ كم بين بهلا داخل عُمان وحتى المنقرب

المعمورة، وقد حدثتنا النقوش القديمة عن الكثير من الحرف والصناعات المختلفة عن الكيفية التي تمت بها الحرفة أو الصناعة، وأسماء الحرفيين والصناع، بالإضافة إلى المواد التي استخدمت في ذلك واستطاعت أن تنقل لنا أهم الحرف والصناعات التي مارسها أهل الحضارات القديمة منذ عصور ما قبل الإسلام، بل وتعطى مفهوما للحرفة أو الصناعة. وقد أمدتنا الكثير من الرسوم المصورة على الآثار القديمة بالكثير من المناظر التي تصور العديد من الصناعات الحرفية القديمة وأساليب العمل التي اتبعها الحرفيون وبعض الأدوات، والمواد الخام التي استخدموها في صناعاتهم. وعملية التصنيع بمراحلها المختلفة والعاملين فيها والمشرفين عليها. وأمکن التعرف على منتجات الصناعات الحرفية الكثيرة التي تنتمي للعصور القديمة، وموادها وأدوات صناعتها، من خلال ما عثر عليه من منتجات حرفية في المقابر والمعابد التي تنتمي لمختلف العصور القديمة، والتي كان الدافع في وضعها بهذه الأماكن هو الاعتقاد بالحياة الأخرى لدى الشعوب القديمة. وعرفت اللغات السامية القديمة اللفظ (أمر) وتعني الحرفي الماهر. كما جاءت الكلمة مرادفة للأجر وجاء أيضاً أن المهارة هي الحدق في الشيء. والماهر الحاذق بكل عمل، وفي الحديث "مثل الماهر بالقرآن مثل السفرة"، والماهر الحاذق بالقراءة. وكان الاتجاه دائما هو تفضيل مفهوم المهارة في شرح هذه الألفاظ، وربما السبب في ذلك يعود إلى أن جذرا (ر) في

بناء المساكن بالقرب من الأراضي الزراعية، كما تطلب أنواعا جديدة من الأدوات والمعدات الثقيلة والثابتة، التي لم تكن تسمح بها حياة القنص والصيد التي تقوم على التنقل الدائم، مثال ذلك الرحي والطاحون والهاون والأفران والصوامع والفواريع والسحاحي والمحرث، وغير ذلك من الأدوات اللازمة لحرث الأرض وزرعها و لمعالجة الغذاء وتخزينه ونقله. لكن صناعة الأدوات والأواني وبناء المساكن أصبحت تخصصات دقيقة تتطلب وقتا وجهدا وخبرة، مما يعني تفرغ بعض أفراد المجتمع لهذه المهنة، وتوفير الغذاء لهم مقابل خدماتهم، وهذه أولى مراحل التخصص المهني، وتوزيع العمل والأدوار وتبادل الخدمات والمنافع بين أفراد المجتمع. وهناك من يعتقد أن تحول الإنسان من حياة الجمع والصيد إلى الزراعة، ترتب عليه تغيرات ذهنية وسيكولوجية، فيما يتعلق بنظرة الإنسان للحياة ومفهومه للزمن. حيث اعتمد الصيد على الطرد والتكتيك واتخاذ القرارات السريعة، فيما يتعلق بحركة الحيوان وسلوكه وتبعية لاصطياده، مما جعل منه عملية مثيرة ومشحونة ونتائجها آنية ومائلة أمام العيان، ويحصل الصياد على نتيجة جهده وتعبه في التو واللحظة. أما الزراعة فهي تتطلب التخطيط الاستراتيجي بعيد المدى الذي يقوم على بعد النظر وعلى الصبر والمثابرة، والكد والكح وانتظار النتائج. والصناعات الحرفية هي نتاج الحضارة والاستقرار وهي بذلك عمل قديم قدم الإنسان على وجه

■ إن خلافة الإنسان في الأرض هي خلافة إصلاحية تعميرية، والإعمار يحتاج إلى توجيه، وتدريب، وتشجيع على الإبداع، وقد تولت الشرائع السماوية مهمة التوجيه إلى الاستخلاف الإنساني باعتبارها مهمة دينية إسلامية، وكان الإنسان الأول منذ نشأته على الأرض، ولا يزال، في حاجة إلى من يوجهه ويذكره بالحكمة من خلقه في الحياة. ومن أوضح النصوص القرآنية في توجيه الناس إلى مهمة الاستخلاف الإصلاحي أو التعميري قوله تعالى: (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) (سورة هود، آية ٦١) وعن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن من الذنوب ذنوبا لا تكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة" قالوا: فما يكفرها يا رسول الله؟ قال: "الهموم في طلب المعيشة". وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن داود - عليه السلام - كان يأكل من عمل يده"، وقال نصير بن يحيى: حدثني مكي بن إبراهيم، عن فتح بن ثابت البناني، قال: بلغني أن العبادة عشرة، تسعة في طلب المعيشة، وواحدة في العبادة. ■■

وقد كان لتوجه الأبحاث نحو الوطن العربي القديم أثر كبير في وضوح الرؤية حول الألفية الحضارية للمنطقة العربية وأسبقيتها على أية منطقة أخرى في العالم، بل تبين أن حضارة أوروبا في العصور اليونانية والرومانية تدين بالكثير من إنجازاتها إلى حضارات الوطن العربي القديم، في العمران والفكر والفنون. فقد دلت المكتشفات الأثرية التي أتت من مختلف أرجاء الوطن العربي، وعلى امتداد القرنين الماضي والحالي، أن الإبداعات الكبرى في التاريخ البشري انطلقت من الوطن العربي القديم، ولقد وجدت على أرضه منذ الألف العاشرة قبل الميلاد القرى الأولى التي تطورت عبر الزمن اللاحق لتصبح مدنا ودولا وممالك وإمبراطوريات ذات شأن ونفوذ كبيرين.

وقد حصلت على أرض هذا الوطن تحولات اقتصادية هامة في مجالات الحرف واستخدام المعادن، والإنتاج والتبادل التجاري، واختراع الكتابة والفنون، والفكر، وزادت مكانة الوطن العربي رفعة وعلا لكونه مهدا للديانات السماوية الثلاث. وظل نقطة التقاء وتفاعل حضاري كبير. وقد تبين أن الوطن العربي بمساحته الممتدة من الأطلسي حتى الخليج العربي، ومن طوروس حتى بحر عمان قد شكل إطارا جغرافيا واحدا تباينت بنياته الجغرافية، ولكنها تكاملت وكانت الوعاء الذي احتضن شعوبا وحضارات تحمل قواسم مشتركة كثيرة، جعلت منها حضارة واحدة تلتقي في خطوطها العريضة عبر العصور.

الزراعة والصناعات الحرفية كان الإنتاج الزراعي خطوة مهمة في مسيرة التطور البشري، نتجت عنها آثار عميقة. وقد فتحت هذه الخطوة للإنسان آفاقا جديدة، مكنته من أن يحكم سيطرته على بيئته

